المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب تبياناً وتفصيلاً لكل شيء، وختم بمحمد ﷺ النبوات إعلاء لقدره وإشعاعاً للهدايات الربانية على العالمين، ثم أورث هذه الأمة النبوة والكتاب وجعلها أمة وسطاً شاهدة على الناس أجمعين، وكلفها بأمانة التبليغ والبيان إلى يوم الدين، واستخلفها بعد ذلك لتكون أهلاً لحمل أعباء العمران البشري أخذاً بسنن البناء والنصر والتمكين والتحصين.

أما بعد:

فإن أولى ما يرغب فيه الراغب وتصرف إليه همة الباحث، بعد كتاب الله تعالى، النظر في سيرة رسول الله ﷺ؛ لاجتلاء غررها، واجتلاب دررها، وبيان هداياتها السننية العمرانية الرسالية الكفيلة بإخراج الإنسانية مما تعانيه من أزمة حضارية شاملة تجسيداً لحقيقة التأسي المقاصدي الكلي، ولذلك ترجح لدينا داعي البحث في موضوع نحسبه -والله أعلم- من أخطر موضوعات السيرة النبوية وأكثرها أهمية، وأدقها نظراً، وأوسعها آفاقاً، وأجدرها بالبحث والنظر، وأولاها بالتطبيق والتنزيل ذلك هو موضوع: "سنن العمران البشري في السيرة النبوية".

إن سيرة رسول الله ﷺ قد عرضت ولأول مرة في التاريخ رؤية ومنهجاً وتطبيقاً لسنن العمران البشري المتحكمة في حركة التاريخ وصيرورة المجتمعات والحضارات، ووضح ﷺ بطريقة عملية وعلى المستوى الميداني مسالك هذه السنن، وأن أي تعطيل لها أو حدوث خلل في إدراكها، إنما يترتب عنه جزاء من جنسه؛ وهو الهزيمة والنكوص والتراجع مهما تحقق هذا المجتمع بالإيمان بالله، فسنن الله لا تحابي أحداً.

إن السيرة النبوية تضع بين أيدينا -على الدوام- منهجاً نموذجياً وممارسة تطبيقية

مثالية في إقامة العمران الإنساني، وهو ما يمثل الشرط الموضوعي لارتقاء الأمة اليوم إلى درجات متميزة من الأصالة والفعالية والاطراد في أدائها وكفاءتها الإنجازية، وقيامها بواجب الشهادة على الناس وتجاوز المديونية الحضارية التي عانت منها الأمة قروناً من الزمن، تعطلت بسببها مهمة الاستخلاف، وأفقدها مقومات الغلبة والتمكين.

ويستمد الحديث عن فقه سنن العمران البشري علماً واستخلافاً وتسخيراً أهميته من كونه دعوة قرآنية أصيلة جعلته من كليات الدين وحقائق الشريعة، فبه يحصل الاعتبار وتعرف أسباب النصر والهزيمة، وبإحكامه تتصدر الأمة قيادتها لأمم الأرض، وتستعيد موقع الوسط والشهادة على العالمين، وتحقق مقاصد أمانة الاستخلاف وعمارة الأرض، وتنجو من التيه المنهجي والمعرفي والقيمي الذي هو عنوان خراب العمران الإنساني المعاصر.

- أسباب ودواعي اختيار موضوع الكتاب:

وإن استصغرت نفسي واستعجزتها أن تخوض عباب هذا الموضوع، فإن البواعث إليه تقوت، والهمة به تعلقت، فتضافرت مجموعة من البواعث والدواعي إلى معالجته وهي كالآتي:

دواع منهجية:

- إذا كانت السيرة النبوية هي التجسيد الخالد للرسالة، والتطبيق العملي لقيم القرآن. فإن دعوة القرآن إلى الفقه السنني العمراني قد وجدت أعلى مستوياتها الواقعية وأرقى كمالاتها الحضارية، وأدق إنجازاتها التاريخية في سيرة رسول الله ﷺ، ذلك لأن المنهج النبوي تفاعلت فيه منظومة آيات الآفاق والأنفس مع منظومة سنن الهداية والتأييد، وتكاملت فيه منظومات سنن التسخير مع منظومات سنن الاستخلاف.

- تشكل السيرة النبوية الإطار المرجعي البشري المطلق الذي يتضمن أعلى الشروط لتحقق التأسي والاقتداء، فمخالفة أمره ﷺ والسنن التي سلكها لإقامة العمران سبب لحصول الافتتان بنماذج غريبة، ومناهج مأزومة معرفياً ومنهجياً؛ فيحصل التيه، وتتكرس حالة الوهن والتراجع.

- القدرة التفسيرية التكاملية العالية للمقاربة السننية العمرانية للسيرة النبوية التي تكشف عن غنى هذه السيرة، وعطائها اللامحدود في الزمان والمكان وإمكاناتها، وواردتها المتوالية في الاستجابة لقضايا العصر، وتقديم الإجابات المناسبة لمشكلات العمران المعاصر.

دواع علمية ومعرفية:

- إن تأمل النموذج النبوي في العمران البشري خلال ثلاثة وعشرين عاماً، والوقوف على حجم المشاريع الكبرى التي أنجزها ﷺ بدءاً بمشروع بناء الإنسان إلى بناء الأمة، مروراً ببناء المجتمع والدولة، وكيف أنجزت المهام بدقة وعناية في مجتمع لم يكن داخل التاريخ ولا يعرف سنن التاريخ، ولم يكن له ذكر في المعرفة وصناعة الحضارة، هو وجه عظيم من أوجه دلائل نبوته ﷺ؛ إذ كيف يمكن لأحد أن يحدث تلك النقلة العقدية والتصورية والمعرفية والمنهجية والسلوكية إن لم يكن آخذاً بزمام السنن.

- حاجتنا اليوم إلى صياغة فقه سنني خاص بالعمران البشري من خلال أحداث ووقائع السيرة النبوية، وتبين كلياته وأبعاده وضوابطه وقوته الإنجازية الحضارية العالية، بوصفه خطوة نحو تحقيق النهضة والشهود الحضاري.

- أن الناظر في الدراسات والأبحاث المنجزة حول السنن الإلهية يرى أن الشأن فيها لا يخلو من أحد أمرين: الأول: انشغل بالجانب التأصيلي والتنظيري لموضوع السنن، والثاني: صرف اهتمامه صوب البحث في تطبيقات هذه السنن

في ضوء القرآن الكريم، وتتم الإحالة إلى بعض الأحاديث النبوية أو وقائع من السيرة. لكن ظل البعد السنني العمراني في دراسة السيرة الحلقة الأكثر إثارة للجدل، بحكم شح الدراسات والأبحاث وندرتها في مقابل طغيان مقاربات تعتمد السرد التاريخي، وأخرى تركز على البعد العسكري الحربي أو تعمد إلى إسقاط مناهج وقراءات غريبة على طبيعة السيرة النبوية.

دواع حضارية:

- التأكيد على ضرورة أن تكون السيرة النبوية أحد العوامل المركزية في تحفيز القيادات العلمية والفكرية للأمة ومنظري مشاريع الإصلاح والإشهاد الحضاري على تجاوز التحديات والتهديدات المحيطة بالأمة، وذلك بالاستهداء بأنوارها حتى تقف الأمة على علل الهزيمة الحضارية وأسبابها.

- تأهيل وعي أبناء الأمة المسلمة لقيادة العالم والشهادة على الناس عبر إحكام المدخل السنني. ذلك أن ضآلة مردودية الحركة الإصلاحية التجديدية الإسلامية المعاصرة، يكمن الجزء الأهم منها في قصور الفقه السُنني واضطرابه.

- الدراسات السابقة في الموضوع:

لم أقف على بحث مستقل في الموضوع، يضاف إلى هذا قلة الدراسات والبحوث في هذا الشأن قديماً وحديثاً، وعدم إيلائه العناية والاهتمام الكافيين من قبل العلماء والدارسين، وإن كانت لهم إشارات فيما ألفوه وصنفوه، وقد أشرت في ثنايا هذا البحث إلى جهود المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين في بيان السنن الإلهية وضرورة الكشف عنها وعدم مصادمتها، وكان لتفسير المنار وأقوال الإمامين محمد عبده (توفي: ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م) ومحمد رشيد رضا (توفي: ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م) صداها في بعث وتجديد الدعوة إلى فقه السنن، فظهرت كتابات ومؤلفات أحيت من جديد البحث في مجال السنن الإلهية عامة، وقد عرضت لأبرزها خلال فصول هذا البحث مثل كتابات

المفكر الجزائري المجدد مالك بن نبي (توفي: ١٩٧٣م) في سلسلة (مشكلات الحضارة)، والمفكر السوري جودت سعيد (ولد: ١٩٣١م) في سلسلة من كتبه بعنوان: (سنن تغيير النفس والمجتمع)، وكتاب "تجديد التفكير الديني في الإسلام" للفيلسوف الباكستاني المسلم محمد إقبال (توفي: ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م)، و"ظاهرة المحنة: محاولة لدراسة سننية"، لخالص جلبي (ولد: ١٩٤٥م)؛ و"سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم"، للشيخ محمد الصادق عرجون (توفي: ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)؛ وكتاب "التفسير الإسلامي للتاريخ" لعماد الدين خليل (ولد: ١٣٥٨هـ)، و"السنن التاريخية في القرآن الكريم"، لمحمد باقر الصدر (توفي: ١٩٨٠م)؛ وهي مؤلفات تعد عمدة البحث المعاصر في ميدان السنن الإلهية، ثم برزت بعد ذلك جمهرة من الأبحاث والمؤلفات مثل كتاب "على مشارف القرن الخامس عشر الهجري: دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر"، لإبراهيم بن علي الوزير(ولد: ١٣٥١هـ)؛ وكتاب "أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق" لأحمد محمد كنعان (ولد: ١٩٤٨م)، وكتاب "السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، لعبد الكريم زيدان (ولد: ١٩١٧م)؛ ثم ورث المفكر الجزائري الطيب برغوث (ولد: ١٩٥١م) مشروع مالك بن نبي وخاض غمار التأليف في ميدان الفقه السنني فألف الكتب الآتية: كتاب "الفعالية الحضارية والثقافة السُننية"، وكتاب "مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية: قراءة في سنن التغيير الاجتماعي"، وكتاب "الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية"، وكتاب"حركة تجديد الأمة في خط الفعالية الاجتماعية"، وغيرها من الكتب النافعة، وكان قبل ذلك قد كتب رسالته لنيل درجة الماجستير بعنوان "منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية" وقد طبعها المعهد العالمي للفكر الإسلامي سنة ١٩٩٦م، وفيها إشارات منهجية ومعرفية تفيد في الكتابة العلمية في السيرة النبوية من وجهة نظر سننية. وكتاب "سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها"، لمحمد هيشور، وأصل البحث رسالة ماجستير نشرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

وكُتبت في الموضوع في مجال السنن الإلهية عامة أو في القرآن الكريم رسائل وأطروحات جامعية، فمن المغرب أذكر على سبيل المثال رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا لأحمد الشاكر بعنوان "سنن التغيير التاريخي في القرآن الكريم" ونوقشت بالرباط عام ١٩٩٣م، ورسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، لعبد الرحمن قشيش، بعنوان "نظام السننية في المذهبية الإسلامية وأثرُه في التغيير الاجتماعي"، ونوقشت بالرباط عام ١٩٩٣م، ورسالة لنيل دكتوراه الدولة، لإبراهيم رضا بعنوان "السنن الحضارية لبناء الأمم وانهيارها من خلال جهود المفكرين المسلمين المحدثين" ونوقشت بالرباط عام ٢٠٠٢م، ورسالة لنيل الدكتوراه ليامنة قيقلان بعنوان: "السنن الإلهية في التمكين للأمم في القرآن: دراسة في أعمال المفسرين المحدثين"، ونوقشت بالرباط سنة ٢٠١٠م، ومن المشرق رسالة ماجستير لحازم زكريا محيي الدين، بعنوان "السنن الإلهية عند محمد رشيد رضا" ونوقشت بكلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، في بيروت، سنة ١٤٢٣هـ، وهي مطبوعة، ورسالة مقدمة لنيل الدكتوراه، لشريف صالح الخطيب، بعنوان: "السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك"، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، فرع العقيدة، مكة المكرمة، السعودية، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ورسالة لنيل الدكتوراه لمجدي محمد عاشور، بعنوان: "السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم: أصول وضوابط"، نوقشت بكلية الآداب، جامعة عين شمس. أما في مجال السنن الإلهية في السنة النبوية فالرسائل فيه قليلة جداً، أذكر منها رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، لإدريس العلمي، بعنوان: "فقه سنن النفس والمجتمع في السنة النبوية" ونوقشت بوجدة سنة ٢٠٠٣م، ورسالة لنيل الدكتوراه لرشيد كهوس بعنوان: "سنة الله في جهاد رسول الله ﷺ" نوقشت بوجدة سنة ١٤٣٠هـ.

وهذه البحوث والرسائل الجامعية وغيرها مما كُتِب في هذا الموضوع، يندر فيها الانكباب على دراسة السنة النبوية لاستنباط السنن، وهو في موضوع سنن العمران البشري في السيرة النبوية تكاد لا تجد عنه حديثاً، إلا ما كان من إشارات في الرباعية

الماتعة للشيخ محمد الصادق ابراهيم عرجون بعنوان "محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة -بحث وتحقيق-"، و في كتاب عماد الدين خليل "دراسة في السيرة"، وفي كتابات المفكر الجزائري الطيب برغوث، خصوصاً كتابه "منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية".

وقد اطلعت على جل تلك الرسائل الجامعية وغيرها مما نوقش في الجامعات الإسلامية[1] مما انتهى إليه البحث والتفتيش، ونظرت في منهجية تناول أصحابها لموضوع السنن وما استثمروه من معارف من العلوم الشرعية والاجتماعية والتاريخية، وما خلصوا إليه من استنتاجات وتوصيات، وقد تباينوا في ذلك كله، فكان بعضهم أجود وأعمق وأدق من بعض، ولم أجد فيهم من أفرد بحثاً خاصاً بسنن العمران البشري في السيرة النبوية، دون أن أنكر استفادتي من بعض هذه الرسائل؛ استفادة مباشرة أو غير مباشرة.

وإني أختار للبيان -من بين ما ذكرت في مجال السنن الإلهية في القرآن الكريم عامة- بحث أحمد الشاكر لكونه من البحوث الأولى المسجلة بالجامعة المغربية في موضوع السنن، وبحث مجدي عاشور لكونه اطلع على من قبله وقدم إضافات لم تكن عند من سبقه، وفي مجال السنن الإلهية في ميدان السنة النبوية أو ما تعلق منها بإشارات

---

(١) من بين هذه الرسائل الجامعية:

- شهوان، راشد بن سعيد. "السنن الربانية في التصور الإسلامي"، (بحث مقدم لنيل الدكتوراه، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١١هـ).
- خاشقجي، وجدي. "تحديد أهداف نظام الإسلام في التربية في ضوء سنة الله في التغيير والتمكين والتدافع الحضاري"، (بحث مقدم لنيل درجة الماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ).
- المغربي، أيمن بن نبيه. "السنن الإلهية في تغيير المجتمعات في ضوء القرآن الكريم جمعاً ودراسة"، (جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٧/١٤٢٨هـ).
- ملال، يونس. "السنن الإلهية في نهوض الحضارة ونكوصها في ضوء نصوص الكتاب وفقه التاريخ: الجانب الفكري أنموذجا"، (جامعة الجزائر، الجزائر، ٢٠٠٠-٢٠٠١م).

من السيرة النبوية رسالة ادريس العلمي.

"سنن التغيير التاريخي في القرآن الكريم" لأحمد الشاكر.

تقع هذه الرسالة الجامعية في ٢٧٧ صفحة، موزعة على أربعة فصول، خصص الفصل الأول للحديث عن فكرة التاريخ في القرآن، والفصل الثاني للحديث عن مفهوم السنن التاريخية في القرآن، وعرض في الفصل الثالث للعلاقة بين السنن التاريخية وفاعلية الإنسان في التاريخ، في حين جعل الفصل الرابع فصلاً تطبيقياً تحدث فيه عن سنن التغيير التاريخي وسقوط الأمم، دون الحديث عن سنن النهوض والتقدم، وذكر فيه سنن الأجل والتدافع وسقوط الأمم بالظلم والترف. ويلاحظ ضعف الجانب المصطلحي والتأصيلي لموضوع السنن، واقتصار الباحث على سنن التغيير التاريخي المتعلقة بسقوط الأمم والحضارات، دون أن يستوفي هذا الأخير حقه من الاستقراء والتتبع والتحليل.

"السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم: أصول وضوابط"، مجدي محمد عاشور.

ينقسم الكتاب إلى قسمين: يتناول الأول الجانب النظري في دراسة السنن الإلهية وذلك في أربعة فصول هي: تعريف السنة وأقسامها وحجيتها، موارد السنن وضوابط استخراجها، خصائص السنن، أهمية دراسة السنن. وفي القسم الثاني يقدم الكتاب تطبيقات ونماذج للسنن العامة وسماه "الجانب التطبيقي في دراسة السنن الإلهية"، وذلك في خمسة فصول هي: سنة الله في الأسباب والمسببات، سنة الله في الجزاء بجنس العمل، سنة الله في الابتلاء والفتنة، سنة الله في النصر والتمكين، سنة الله في هلاك الأمم. ويقع الكتاب في (٥١٧) صفحة، وفيه كثير من الابتكار والدقة، لكن مما يؤخذ على الباحث عدم تدقيقه في الجانب المصطلحي لمصطلح السنة، فلم يوف هذا الجانب حقه من الدراسة، واستطراده أيضاً في بعض المناقشات الكلامية المتعلقة بالسببية والعلية والحتمية والحرية الإنسانية مما لم يكن له من داع. ويبقى الكتاب مفيداً جداً في

بابه وإن لم يكن متعلقاً بمجال بحثنا إلا من حيث الاشتراك في موضوع السنن.

"فقه سنن النفس والمجتمع في السنة النبوية" إدريس العلمي.

اشتملت هذه الرسالة على مقدمة ومدخل وثلاثة أبواب وخاتمة، أفرد الكلام في الباب الأول لبيان السنن الإلهية في الطبائع البشرية. وفيه فصلان: الفصل الأول في سنن طبائع الأنفس، والفصل الثاني في سنن طبائع الاجتماع والعمران البشري. أما الباب الثاني: فجعله لبيان فقه السنن الإلهية في التغيير، وعقد فيه فصلين: الفصل الأول في فقه سنة التغيير، وجعل الفصل الثاني في بسط الكلام على فقه السنن الإلهية في التغيير. أما الباب الثالث: فأفرده للكلام على مراعاة السنن الإلهية في التصرفات النبوية بسياسة الأمة، وتدبير شؤون دولة الإسلام.

ويعد هذا البحث نادراً في بابه وجديداً من حيث طريقة تناوله، لكن يؤخذ على الباحث عدم التوازن بين مباحث الرسالة، وعدم تمييزه الدقيق بين مصطلح السنن في ميدان الاجتماع ومصطلح الآيات في ميدان الأنفس والآفاق، كما أنه أغفل عدداً من القضايا السننية المتعلقة بالعمران والاجتماع، ولم يرق بالبحث إلى صياغة كليات وقواعد سننية ناظمة لأمر العمران والاجتماع البشري.

- إشكالية موضوع الكتاب:

نبعت إشكالية موضوع الكتاب من متابعة لتلك الأبحاث والدراسات المنجزة في موضوع السنن، وما يقتضيه الأمر من تجديد البحث في هذا الموضوع، ومن معاينة ما عاشته الأمة ردحاً من الزمن شاهدة على الناس، آخذة بسنن العمران، لكن توقفت تلك الدورة الرسالية من العمران الإنساني العالمي وأعقبها طغيان واستكبار لحضارات ذات أصول يونانية ورومانية تعاقبت على قيادة العالم وغزوه والسيطرة عليه، ورسمت بذلك خرائط جغرافية وسياسية كانت الأمة الإسلامية ضحية لها فتعرضت لأعنف عملية غزو في التاريخ، وظهرت بسبب ذلك دعوات وحركات إصلاحية ومشاريع النهضة والتغيير حملت هم الإصلاح والتجديد، وتعددت رؤاها

في فهم الوحي وفهم الواقع، وتنزيل ذلك الفهم على الواقع. واستندت من بين ما استندت إليه على السيرة النبوية مصدراً ومرجعاً لها في التأسي والاقتداء، إلا أن غالبها جعل من وقائع السيرة مجرد شواهد على اختيارات مسبقة، فأخضعت السيرة جراء ذلك لإسقاطات لرؤى دعوية وتربوية وسياسية وتنظيمية، وغابت المقاربة السننية العمرانية المقاصدية الكلية للسيرة النبوية، والنتيجة أن ذلك الهدف الأسمى الذي نشأت من أجله لم يتحقق بعد؛ وهو إقامة الدين في الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والأمة والإنسانية جمعاء؛ أي إقامة العمران الرسالي الإنساني الإسلامي العالمي. إن هذا الإخفاق والاستنزاف المتواصل لإمكانات الأمة الحضارية تغدو معه الإجابة عن هذا الإشكال المحوري قضية حياة أو موت؛ إنه إشكال سنن العمران البشري، وكيف يمكن للأمة اليوم في شخص نخبها العلمية والفكرية، وقياداتها الدعوية والسياسية، ومؤسساتها الفقهية والاجتماعية والاقتصادية أن تحكم صنعة سنن إقامة العمران والاجتماع البشري، مستهدية في ذلك ببصائر وأنوار السيرة النبوية؟ وكيف يمكننا إعادة قراءة السيرة النبوية وفق المقاربة السننية العمرانية؟ وما هي الأسس المنهجية والمعرفية والتكاملية التي تقوم عليها هذه المقاربة؟ وما هي مراحل البناء السنني للعمران البشري وشروط إحكامه وفقه كلياته في ضوء الهدي النبوي؟

- منهجية إنجاز الكتاب:

انسجاماً مع موضوع الكتاب، فإنني اعتمدت المنهج الاستنباطي التحليلي النقدي أثناء قيامي بقراءة السيرة النبوية قراءة سننية لا يفترض فيها أن تجمد عند السرد التاريخي للأحداث أو تكتفي بالنظر في المرويات من جهة الصحة أو الضعف، ومن خصائص هذا المنهج التحليلي أن يكون نابعاً من رؤية كلية ومقاصدية تقتضي نبذ النظر التجزيئي الذي يقف عند حرفية التخصص، ويلغي الأبعاد المتداخلة بين العلوم والمعارف. كما تقتضي هذه الرؤية تجديد الأوعية التبليغية للأمة بمفاهيم ذات قوة إنتاجية تواكب التحولات الثقافية الشاملة جاعلين من السنن وحدة للتحليل التي من خلالها ننظر إلى السيرة ونعيد قراءتها وفق المنظور الاستخلافي السنني للعمران الإنساني.

أما مصادر الكتاب في هذا الموضوع فكانت نوعين: أصلية وتبعية. فأما الأصلية فكتاب الله تعالى، فهو المصدر الأساس والعاصم من ضلال الفهم، والضامن لسداد الرأي، لذلك نظرت في القرآن نظراً متأنياً، وأخذت منه مباشرة جاعلاً الرؤية القرآنية للسنن هي الحاكمة في فهم وقائع السيرة النبوية، ثم كتب السير والمغازي والحديث، فاعتمدت من كتب السير والمغازي على سيرة ابن إسحاق (توفي: ١٥١هـ) بتهذيب ابن هشام (توفي: ٢١٣هـ)، وشرح السهيلي (توفي: ٥٨١هـ) لها المسمى"الروض الأنف"، ومغازي موسى بن عقبة[1] (توفي: ١٤١هـ)، وطبقات ابن سعد (توفي: ٢٣٠هـ)، والدرر في الشمائل والسير لابن عبد البر (توفي: ٤٦٣هـ)، وعيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس اليعمري (توفي: ٧٣٤هـ)، وزاد المعاد لابن القيم (توفي: ٧٥١هـ)، والبداية والنهاية لابن كثير (توفي: ٧٧٤هـ) وغيرها. وتشكل كتب الحديث مصدرا أساس من مصادر السيرة النبوية، حيث تتميز بإيراد أسانيدها وتعدد طرقها وفقه تراجمها، وللصحيحين قيمة خاصة لإجماع الأمة على صحة ما ورد فيهما من الأحاديث، وقد تطلب الأمر تتبع العديد من أبوابهما حتى تلك التي لا يوحي فيها النظر أنها مظنة لذكر حدث في السيرة، وبالإضافة إلى الصحيحين اعتمدت على كتب السنن الأربعة ومسند الإمام أحمد (توفي: ٢٤١هـ)، والمستدرك للحاكم (توفي: ٤٠٥هـ)، ومعاجم الطبراني الثلاثة (توفي: ٣٦٠هـ)، وكتب البيهقي (توفي: ٤٥٨هـ)، وغيرها من المسانيد والمصنفات والمعاجم الحديثية.

وأما التبعية فتفاسير القرآن، ومنها أحكام القرآن للقرطبي (توفي: ٦٧١هـ)، وتفسير المنار لرشيد رضا (توفي: ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م)، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (توفي: ١٣٩٣هـ)، وكتب شرح الحديث، وتحديداً فتح الباري لابن حجر (توفي: ٨٥٢هـ)، وشرح مسلم للنووي (توفي: ٦٧٦هـ)، ومعاجم اللغة، مثل معجم

(١) جمع مغازي ابن عقبة وخرج مروياتها أستاذنا الدكتور محمد باقشيش أبو مالك في رسالته للماجستير، وقد طبعت من قبل كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، ١٩٩٤م.

مقاييس اللغة لابن فارس (توفي: ٣٩٥هـ)، وكتاب الألفاظ لابن السكيت (توفي: ٢٤٤هـ)، وكتب التاريخ، مثل تاريخ الطبري (توفي: ٣١٠هـ) وتاريخ الإسلام للذهبي (توفي: ٧٤٨هـ) وكتب التراجم مثل الاستيعاب لابن عبد البر (توفي: ٤٦٣هـ) والإصابة لابن حجر، وكتب الأصول، مثل كتاب الموافقات للشاطبي (توفي: ٧٩٠هـ) وكتب العمران والاجتماع البشري، مثل مقدمة ابن خلدون (توفي: ٨٠٨هـ).

ما يتعلق بالخطوات المنهجية لإنجاز الكتاب:

وقد سلكت لإنجاز هذه الدراسة الخطوات الآتية:

- حصر الآيات والأحاديث التي تضمنت كلمة "سنة، سنن" وكلمة "العمران" واشتقاقاتهما اللغوية.
- استقراء وتتبع معاني ودلالات لفظتي "السنن" و"العمران" في معاجم اللغة، وكتب التفسير والحديث وتعريفات القدامى والمعاصرين.
- صياغة تعريف اصطلاحي لـ"سنن العمران البشري" وبيان مفاصل الرؤية القرآنية لموضوع السنن.
- تتبع النصوص والمرويات في مصادر السيرة والحديث، وتوجيهها حسب ما تقتضيه أبواب البحث وفصوله وعناوينه، مستنبطاً منها وفق المنهج العلمي ما يفيد موضوع سنن العمران البشري في السيرة النبوية.
- بينت درجة المرويات على وفق ما يقتضيه حالها من الصحة والضعف، فما كان في الصحيحين أثبته، والعزو إليهما أو إلى أحدهما هو إعلام بصحة الحديث، وإن لم يكن نظرت في كتب الحديث الأخرى وأقوال أهل العلم فيها، معتمداً في ذلك على كتب الجرح والتعديل والحكم على الرجال.
- إذا كانت الرواية في الصحيحين اكتفيت بهما دون غيرهما من كتب الحديث، مع إرداف ذلك بما روته كتب السير والمغازي خصوصاً ابن إسحاق وموسى بن

عقبة وغيرهما مع بيان درجة أسانيد ماورد في هذه الكتب السير والمغازي) من الصحة والضعف.

- اعتمدت في روايات الصحيحين على فتح الباري لابن حجر، والمنهاج للنووي، لفظاً وترقيماً وتبويباً وترجمة.

- إذا لم ترد الرواية في الصحيحين وكانت في غيرهما قدمت تخريجها من كتب السير والمغازي خصوصاً ابن إسحاق، متى كان سندها متصلاً، ورجاله ثقات، وكان فيه ابن إسحاق مصرحاً بالسماع، ثم أردفت ذلك بما ورد في السنن والمسانيد إن وجدت ما يدعمها. وإلا قدمت تخريج الرواية من السنن والمسانيد إذا اختل الشرط السابق.

- إذا حكمت على رواية ابن إسحاق بأنها حسنة، فذلك لأن السند متصل ورجاله ثقات وصرح بالسماع، وهو ما صار إليه المحققون من أهل العلم بالرجال والسير.

- حرصت على الإفادة من تعليقات العلماء في حكمهم على الروايات والأحاديث مثل الحافظ أبي بكر البيهقي (توفي: ٤٥٨هـ)، وابن القيم، وابن حجر العسقلاني، ونور الدين الهيثمي (توفي: ٨٠٧هـ)، ومن المعاصرين محدث العصر الشيخ ناصر الدين الألباني (توفي: ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).

- اعتمدت في بيان زمن وقوع أحداث السيرة ووقائعها على ترتيب ابن إسحاق، إلا ما وجدته راجحاً عند غيره من أهل السير والحديث، مستعيناً في ذلك بترجيحات ابن القيم وابن كثير وابن حجر وغيرهم.

- أشرح بعض غريب ألفاظ الحديث إذا كانت الحاجة ضرورية إلى ذلك.

- جريت في العزو إلى المصادر الحديثية على ذكر اسم الكتاب والباب والرقم، خصوصاً الصحيحين والسنن الأربعة.

- لم أرد إثقال الكتاب بتراجم للصحابة والتابعين والعلماء والمعاصرين ممن لا يجهلهم أحد في مضمار البحث، وأخبارهم مبثوثة في كتب التراجم والرجال، وقد رأينا غيرنا قد أثقل الحواشي بذلك ولو حذفت لسقط ثلث بحثه.

- **خطة الكتاب ومبرراتها المنهجية:**

وحتى يتحقق هذا العمل العلمي بقدر معتبر من المنهجية المستوعبة للموضوع اتجه نظري بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ إلى تقسيم الكتاب بعد هذه المقدمة إلى بابين وخاتمة.

وقد خصصت الباب الأول للحديث عن المداخل الكبرى لدراسة سنن العمران البشري، وجعلته بمثابة الإطار المصطلحي والمرجعي والمنهجي للبحث، وقسمته إلى أربعة فصول:

درست في الفصل الأول دلالة لفظي "السنن" و"العمران" في القرآن والحديث والاصطلاح العام، مبرزاً الدلالة المعجمية اللغوية والاصطلاحية لمصطلحي السنن والعمران وحدهما في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف.

وعرضت في الفصل الثاني لفقه سنن العمران البشري، وقد فصّلت القول فيه على الأسس المنهجية لفقه السنن، من خلال بيان حجية السنة الإلهية وأقسامها وخصائصها، وموارِدها وأصولها، وضوابط استنباطها ومعرفتها، مع التأكيد بعد ذلك على أهمية وضرورة الفقه السنني وأثره في تجديد الوعي الاستخلافي. وإن بدا أن هذا الموضوع الأخير أولى من غيره بالتقديم، فإننا آثرنا أن نجعله آخر الفصل؛ ليكون أكثر جلاء وقوة بعد بيان الأساسين المصطلحي والمنهجي لفقه سنن العمران البشري وليكون مدخلاً للفصل الثالث.

أما الفصل الثالث فقد فصلت فيه الأسس المعرفية المرجعية لفقه السنن الذي أفردنا فيه القول عن البصائر القرآنية في الوعي والفقه السنني، عبر موضوعات ثلاثة بينت فيها إرشاد آيات الوحي إلى السنن، ودعوتها إلى الإبصار والاعتبار، ومسألة

المستقبلية في الرؤية القرآنية السننية وعلاقة ذلك بدلالات ختم النبوة، مستنبطاً المنظومات السننية الحاكمة لصيرورة العمران البشري حسب الرؤية القرآنية.

وجعلت الفصل الرابع -آخر فصول هذا الباب- للحديث عن قضية السنن في الفكر الإسلامي المبكر بين التأسيس النظري والوعي والممارسة العملية، فهو بمثابة بيان الأساس التاريخي والتكاملي لفقه سنن العمران البشري، وضمنته ثلاثة موضوعات تساءلت في أولها عن مدى اعتبار السنن علماً أم نظرية أم نموذجاً تفسيرياً إرشادياً، ثم عرضت في ثانيها لتتبع حضور الفقه السنني في بعض كتابات علماء الأمة، ثم ختمت آخرها بالحديث عن فقه سنن العمران البشري وتكامل العلوم في المعرفة الإسلامية.

أما الباب الثاني فخصصته للحديث عن ذلك البناء السنني العمراني الذي قاده النبي ﷺ سياقاته ومراحله وقواعده وكلياته ودعائمه، فهو بمثابة الأساس البنيوي والجانب الإنجازي التطبيقي العملي، وقسمته إلى أربعة فصول:

درست في الفصل الأول مسألة الفقه السنني، وتجديد درس السيرة النبوية عبر موضوعات ثلاثة؛ تطرقت في الأول منها إلى السيرة النبوية مصدراً للفقه السنني، في حين جعلت الثاني تقييماً للدراسات حول السيرة النبوية على ضوء قضية السنن، أما الثالث فخصصته للحديث عن منهج تجديد درس السيرة النبوية: ضوابط ومنطلقات.

وعرضت في الفصل الثاني للفقه السنني النبوي والسياقات المتعددة، وضمنته ثلاثة موضوعات أشرت في الأول منها إلى السياق التاريخي ومنظومة القيم قبل البعثة، وتحدثت في الثاني عن البنيات الاجتماعية والأطر المعرفية السائدة قبل البعثة، وختمت الثالث بتفصيل القول في قيمة ومركزية التحول الجذري الذي أحدثه الفقه النبوي السنني.

ووسمت الفصل الثالث بفقه الكليات السننية للعمران البشري في الهدي النبوي، وقد جاء هذا الفصل في ثلاثة عناوين؛ الأول في الأبعاد الكبرى لفقه الكليات السننية

للعمران البشري في المنهج النبوي، والثاني في المداخل الأساسية للكليات السننية، أما الثالث فخصصته للحديث عن الكليات السننية للعمران البشري في السيرة النبوية.

وجعلت الفصل الرابع -آخر فصول هذا البحث- للحديث عن سنن العمران البشري في الفعل والمنهج النبوي بين البدايات والنهايات، لذلك كان الحديث في الموضوع الأول من هذا الفصل عن مراحل البناء السنني للعمران البشري في السيرة النبوية، وبسطنا القول في الموضوع الثاني عن دعائم التغير الاجتماعي وقواعد الفقه المستقبلي في توقع الأزمات في ضوء السيرة النبوية، وقدمنا في الموضوع الثالث إشارات حول قواعد وأصول الفقه المستقبلي النبوي في توقع الأزمات وإدارتها حماية للعمران البشري. ثم ختمت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم نتائجه والآفاق التي تفتحها هذه الدراسة أمام الباحثين.

وقد حظي هذا الكتاب -في أصله- بإشراف أستاذي الجليل فضيلة الدكتور مصطفى بن عمر المسلوتي، ونال شرف رعايته وتوجيهه، فجزاه الله خير الجزاء. هذا ولا أدعي في هذا الكتاب الإحاطة والإجادة، وإنما هو جهد المقل، عسى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفع الأمة به، وأن يرزقني فيه التوفيق والتأييد، والهداية والتسديد.

ولا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر إلى الإخوة القائمين على إدارة الطباعة والنشر في المعهد العالمي للفكر الإسلامي على ما قدموه من جهود رقت بالكتاب وأثرته، حتى وصل إلى هذه الصورة البهيّة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وأتم صلاة وأزكى سلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين.

المؤلف